

## نظرة في التاريخ

نشر في منتطف ديسمبر الماضي مقال تحت عنوان فتح الاندلس ومدبر بتليق تناول الطريقة التي تجري عليها جامعة بيروت الامريكية في تلقين التاريخ وذكر في ذلك التعليق أن الجامعة « تعلم طلبها ان يبحثوا في التاريخ كأنه علم Science من العلوم الطبيعية انبئية على الاستقراء فلا يكنى النقل فيعزى ل لا يد من تطبيق على نواميس الاجتماع المؤيدة بالاستقراء » فاستلقت نظرنا في هذه العبارة قضيتان : الأولى أن التاريخ علم استقرائي والثانية : أن للاجتماع نواميس مؤيدة بالاستقراء. لذلك أردنا أن نبدي ما عر لنا من الملاحظات عسى أن نجد في صدر المقتطف مجالاً لاذاعتها .

العلم Science والفن والآداب Art and Literature ثلاثة اصطلاحات تدل في العصر الحاضر على ثلاثة اشياء معينة يفصل بينها في الاعتبار العقلي حدود موضوعية ولا تجتمع الأ في حيز واحد حيث ترجع برمتها الى انها نتاج للفكر الانساني على أن كلمة العلم كثيراً ما استهم على الكتاب فهم المقصود منها . ولقد وضع لهذه الكلمة من التعاريف في الفلسفة القديمة والحديثة ما لا يعده حصر وبقيت كنفات العقل الانساني متخالطة في مباحث الفلسفة حتى قام الفيلسوف « أوجست كونت » بوضع فلسفته اليقينية محمداً منازل العلم بمقتضى كنفات العقل ايشري . على ان الفلسفة اليقينية Positive Philosophy على ما يتورها من النقص شأن كل المذاهب الفلسفية ازاء النقد الحديث وازاء تشعب فروع المعرفة العامة ونها وضمت قواعد أولية زادها انتقد قيمة واتخذها الناقدون دعامة لمباحثهم فانجحت مذهباً جديداً في حدود المعرفة الانسانية .

انتهى الباحثون في أوائل القرن الحاضر على ان العلم "Science" نتاج القوة التجريبية والتصديق العملي في انقوانين الطبيعية الثابتة والاستقراء القائم على قواعد ثابتة كقواعد الرياضيات . والفن Art نتاج القوة الخيلة او المصورة . والآداب Literature نتاج انقوة النظرية والبحث الاستثنائي . فالآداب بذلك دعامة العلم التجريبي الاستقرائي والعلم لا محالة مسبوق بها وهي في ذاتها علوم

أولية Incipient Sciences ولكنها ليست علوماً يقينية تميزت وتقررت قواعدها شأن العلوم الرياضية والطبيعية مثلاً. وتصح أن تكون بعض علوم الآداب في اعتبار البعض علوماً نظرية لا تجريبية يقينية. فالاول تتبعه الرياضيات وعلوم الطبيعة والكيمياء والآلة وما إليها. والثاني يتبعه الشعر والموسيقى والتصوير وما إلى ذلك. والثالث تتبعه البلاغة والتاريخ والاجتماع والفلسفة عامة في اوسع معانيها. وهذا التقسيم نفسه قد يختلف فيه الباحثون اختلافهم في تعريف النفس والفلسفة العقلية. غير ان الرأي السائد اليوم في عقول الناظرين في مستجدات العقل الانساني أنهم يفرقون بين العلم والفلسفة أو الآداب كما يدعونها اصطلاحاً باعتبار أن كل ما خرج من حيز النظر الى حيز العمل والتجربة فاصبح ذا قواعد طبيعية ثابتة لا يتأثرها التغير ولا يغيرها التبدل فقد اصبح علماً يقينياً Positive Science وكل ما لم يدخل ذلك الحيز فهو فلسفة أو أدب Literature. ذلك هو الفرق الموضوع اليوم بين انظرية او الآداب والعلم.

ولقد قامت في أوروبا مدرسة اخصها اساتذة التاريخ في جامعة السوربون بفرنسا وعلى رأس هذه المدرسة الاستاذ الفيلسوف هنري برغسن يحاولون ان يكشفوا عن قانون او سنن عامة يخرجون بها التاريخ من حيز الآداب او انظرية أو الفن كما يتطرق البعض في التعمير ويدخلونه في العلم المحض. بحيث تصبح للتاريخ قواعد وأهنة تنتج اسباباً واحدة، وجزاهم في ذلك فثمة من كتاب هذا العصر فإذا نظرت في الواقع وجدت أن كل فرع من فروع الآداب وانظرية قد اشتق منه علم مختلف نظرات الباحثين فيها اختلاف كبير، أو يسيراً على مقتضى الظروف. فأمم العالم مثلاً تتفق جميعها في قطع أدوار نشوية عامة. فللكل أمة مثلاً عصر حجري وعصر برونزي وعصر حديدي. ولكن التاريخ لم يصل الى هذا الحد من العلم اليقيني حتى تزعت العقول الى القول بأن البحث في ذلك ليس من خصائص التاريخ فوضع لهذا الفرع من التاريخ اسم خاص اطلق عليه اسم الاثروبولوجيا وهو علم أدى لحة الى الاجتماع وانبكولوجيا منه الى التاريخ بمعناه المتداول. كذلك اذا نظرت في التاريخ وفي فلسفة التاريخ التي وضع قواعدها فولتير الكاتب الفرنسي الأشهر. فان فلسفة التاريخ لم تلبث أن انقلبت اجتماعاً وتركت التاريخ حيث هو وكما كان معروفاً من قبل. وكل هذا لا يجعل التاريخ علماً

ثابتاً ذا قواعد مقررة لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها .

ان قانون الارتقاء الذي غير من نزع الانسان ومشاعره وصي كل جماعة من الجماعات في قالب خاص بها لم يجعل للتاريخ منه سنة عامة تكفي بين حالات الانسان في كل عصر من العصور . والى ذلك يرجع السبب في أن العلة الواحدة من حالات الاجتماع الانساني قد تنجح نتائج مختلفة باختلاف الظروف والحالات والمؤثرات الخفية التي لن نعرف منها الا ظواهرها دون حقائقها وماهياتها .

يقول هربرت سبنسر - « ان تاريخ العضويات يثبت أن الترقى الحقيقي ينحصر في التغير من حال التجانس الى حال التنافر . وأن سنة ذلك الترقى العضوي هي سنة ضروب الترقى كافة » . ثم يقول - « إن كل ما في الكون مثل تكوين الأرض ونشوء الحياة فيها وترقى الجماعات في العمران ونشوء الحكومات والصناعات والتاجر والآداب والعلوم والفنون جماعها تخضع لهذه السنة الطبيعية من التغير التدرجي من الوحدة النوعية الى الاختلاط والتكاثر النوعي . فان الانتقال من حالة التجانس الى التنافر كان السبب الوحيد في حدوث الارتقاء منذ ظهر أول أثر للتغيرات الكونية في الوجود الى أن بزغ فجر المدنية في تاريخ الانسان » .

هذه سنة عامة اخذها الباحثون في كل علم من العلوم ليعرفوا تلك الاسباب التي تسوقه من التجانس الى التنافر . طبقها علماء الحيوان والنبات على الانواع ليعرفوا اصلها وكيفية نشوئها واخذها علماء الحياة ليعرفوا السبب في نشوء الافراد التي تكون الانواع . ومما لا مشاحة فيه ان المؤرخين وعلماء الاجتماع لو استطاعوا ان يعرفوا الاسباب التي ساقطت الجماعات الانسانية في سبيل الارتقاء من التجانس الى التنافر ، لا في صفاتهم العضوية لان ذلك متروك لعلم الحياة او التكوين العضوي ، بل في تكوين الصفات التي كونت مشاعر الجماعات وميولها واذواقها والقواعد التي تحكم صلة هذه الصفات الانسانية في المجتمع انما او في الكل الاجتماعي وانكسحوا عن البواعث الطبيعية التي دفعت بالجماعات الانسانية الاولى الى التطواف والمهاجرة ونشوء اللغات وعلاقتها بتطور الانسان الى غير ذلك من الاسباب التي تكون التاريخ عامة فهالك يمكنهم ان يجعلوا التاريخ

عفاً ثابتاً . اما واتهم لم يبنوا ذلك المبدأ فالتاريخ لا يزال فرعاً من فروع الآداب  
 واغلب انظن على انه سوف يظل كذلك ازماً لا تقدرها  
 ولا نعلم كيف يستطيع احد ان يفكر في وضع قواعد للتاريخ تقاس بها الحوادث  
 وتتعرف النتائج كالحال في بقية العلوم، او توضع تعاريف عامة للتاريخ ويزمن بها كل  
 الناظرين فيه كما آمن الراديكاليون بان النقطة آخر الخط وان الخط نهاية السطح  
 والمؤرخون لا يزالون مختلفون ولن يزالوا مختلفين في البواعث والاسباب التي  
 كونت التاريخ الانساني . فبهم من يقول بان البيئة الاجتماعية ومنهم من يقول  
 بان البيئة الطبيعية ومنهم من يرد اسباب التاريخ الى العوامل الاقتصادية ومنهم من  
 يرجعها الى المؤثرات النفسية . وكل فرقة من هذه الفرق قد سبقت الى كتابة التاريخ  
 منتحية منحاهما الخاص متبعة طريقها ومبدأها

ان آخر رأي ذاع في البواعث التي احدثت التاريخ الانساني كان رأي العلامة  
 « بنيامين كد » الكاتب الاجتماعي الاشهر . ورأيه ان المحور الذي تدور حوله  
 دائرة التاريخ الانساني بل مظهر التاريخ البشري الوحيد ينحصر في موقفة كبيرة  
 وتجاري دائم قامت به الجماعات ابتغاء ان تخضع عقليتها وقوتها الاستنتاجية لقوتها  
 الشمورية . ذلك لطبيعة في الجماعة لن تنفك عنها . طبيعة تخضع الجماعة دائماً لقوة  
 الشعور دون قوة العقل . وان تلك الحروب التي مزجت دم الانسانية الزكي بمخاض  
 اثرى وتلك الثورات المدنية والاجتماعية ليست سوى نتيجة من نتائج تلك الطبيعة  
 فالانتقام والفضب والكراهية والتعصب للجنس والاعتداف مفاخر لن نجد لها في  
 الافراد من اثر في تحطيم بناء مدني او قيام حالة من حالات العمران . ولكنك ترى  
 ان للجماعة من مظاهر الخوض لهذه البواعث ما كان سبباً في قيام الحروب والثورات  
 على مدى الازمان

غير انك ترى ان علمي الاجتماع والبيكولوجيا وهما اللذان الوحيدتان  
 لهذه الطريقة لم يتقيد النظر فيهما بقيود علمية ثابتة . ولا تزال موضوعاتهما رهن  
 التغير والتبدل واختلاف الآراء وتناقرها في مفصلات هذين الفرعين لا يقاس بها  
 اختلافها وتناقرها في اي فرع من فروع المعرفة الحديثة اللهم الا في قليل من  
 الآداب التي يتسع فيها مجال الخيال وتناقرا في النظر فيها عقول الباحثين وتختلف  
 فيها وجوه البحث باختلاف الناس

ولقد عجزت كل العلوم وفروع المعرفة برمتها حتى اليوم عن وضع حد فاصل لملاقة الفرد بالمجموع ولم يستثن الباحثون قياساً عكساً يضبط في نظارهم هذه العلاقة وسيبقى اصطلاح « انفراد المستقل » اصطلاحاً غامضاً بل مظهراً من مظاهر اللبس والابهام وان لم يكن في ذاته خطأ محضاً لا يقوم له في الطبيعة الاجتماعية مثال. كذلك اذا نظرت في اصطلاح « التطور الاجتماعي » وتساءلت ما هو التطور الاجتماعي العام؟ فان تلك الاصطلاح لم يكشف له العلم عن قانون محدود ولم يعرف الباحثون من الماضي ما يمكن ان يكون مقياساً تقاس عليه الظروف والحالات التي يتشكل فيها انشوء ويتكون بتشكك التاريخ الانساني ولم يفصح العلم عن تلك الاسباب التي تسوق الجماعات الى التناير والاختلاف عن حالاتها الاولى فتدفع بها الى الرقي او تبعث بها الى حضيض التدهور والاضمحلال

وما دامت العلاقة بين الفرد والمجموع لم تعرف وكذلك الاسباب التي تسوق الجماعات الى الترقى او الانحطاط او علاقة الجماعات الخاصة بمجموع الكتل الاجتماعي فكيف يحظر على عقل بشر أن العالم الانساني وهو على ما ترى من القصور وانتخلخل في مستطاعه أن يضع للتاريخ قواعد ثابتة كقواعد الرياضيات؟ وما دام النظر في الاجتماع لم يصبح بعد علماً يقينياً صحيحاً وهو دعامة الطريقة العلمية في بحث التاريخ فكيف يتصور ان التاريخ أصبح علماً؟

ظل القول بأن التاريخ فرع من الآداب منذ زمان زونوفون وهيرودوت وبلوتارك ولبني الى غبون وماكولي وميشليه. ولقد نهج ستبس وسيلي الطريقة الوصفية في كتابة توارخهم رغم تزعمهما الى الطريقة العلمية التي دعوا اليها زماناً. اما السوربون اليوم فيمثل الرأي العلمي يوحى اليه الاستاذ برغسن بذلك الوحي محاولاً وضع حدود لمسألة لا حدود لها في الواقع

ولقد ذهب اللورد ماكولي وهو أكبر مؤرخي الانجليز في القرن الماضي مذهباً خاصاً فقال ان التاريخ ليس الا صفحات من الزمان تتعاقب عليها صور الجماعات بما فيها من أثر العلم والادب والانفعالات والمؤثرات الطبيعية والنفسية والاقتصادية والجغرافية كالمناظر الذي تراه في صفحة السماء يوماً ما يستحيل عليك أن تراه بذاته مرة اخرى بما فيه من اختلاف الصور والالوان والاشكال والتنايرات المتعاقبة. من هنا نجد ان أهل الشهادة لحوادث التاريخ كأهل الشهادة لمناظر الطبيعة. ان

رأوها وتناولوها بومف وأخذت عنهم ذلك الومف او تلقيت عنهم تلك الصورة لتقيس عليها او لتستخرج منها او لتقدرتها بغيرها من الصور التي تقع تحت حرك فانك انما تنظر بنظر غير نظرك وتنعكس على لوحة نفسك صور انفعالات وبراكث وعواطف قد تشعر بما يناقضها تماماً لو انك نظرت اليها بمبني نفسك ونمت تأثير مشاعرك وانفعالاتك الخاصة

اذا اعتبرنا التاريخ صورة فيجب علينا أن نعتبر المؤرخ مصوراً تخط ريشة لأهل زمانه الصور التي تنعكس على لوح نفسه من ممارسته لحوادث الازمان انما تارة تلك الأزمان التي لن نعرف من حقائقها الا بقدر ما أثرت حوادثها في انفس المؤرخين فيها . فالمؤرخ انما يستمد من خيال غيره ومن انفعالات غيره ومشاعر غيره ليستخرج صورة جديدة تستحيل انيها نفسه ويكون مقدار خطتها او صوابها راجع الى مقدار قربها او بعدها من حالات العصر الذي يؤرخ فيه وحالات العصر الذي يؤرخ فيه منقولة اليه برمتها عن غيره وصحة النقل او خطأه راجعان الى صحة نظر الذين صوروا ذلك العصر او خطتهم ومن هنا لا نستطيع أن نضع للتاريخ مقياساً تقيس عليه حقائق الأزمان الماضية وتنبأ بها عن مستقبل اعتماداً على ظروف حاضرة اذا دعيت هذه الاعتبارات في مجموعها .

يقول جوته — « إن التاريخ يجب أن يماد تدوينه والنظر فيه من حين الى حين لا لأن حقائق كثيرة تكون قد عرفت على مر الايام بل لأن أوجها من النظر قد تظهر في أفق البحث العقلي ولان المعاصرين الذين هم ذوو ضلع كبير من تقدم عصورهم وارتقائهم يساقون دائماً الى غيب يشبهون بها الى حيث تصيح ذات مبنية يقتدر بها على تدبر الماضي والحكم عليه بصورة لم تكن معروفة من قبل . ومن طريق النظر في فكرة جوته في التاريخ سار الرأي عند المؤرخين بان تقول بان التاريخ فرع من العلوم الاستقرائية مسألة غامضة مبهمة . والحقيقة ان احباب ذلك القول لم يقيدوا من حجة على صحة رأيهم فتخلصوا من موقفهم بقولهم ان التاريخ فرع من العلوم الاستقرائية باعتبار الموضوع ومن باعتبار الذاتية . ولقد رُدَّ على هؤلاء رأيهم هذا بان التاريخ ان اعتبر علماً باعتبار الموضوع فانما يصح اجتهاداً صرفاً ليس للتاريخ فيه من أثر اللهم الا علاقة المستمد من المستند منه

ولقد تعد الاستاذ ماكولي تريفيلياز وهو خير من أربخ في تهبة ايطاليا

الحديثة رأي الذين يذهبون مذهب ابن التاريخ عد يقيني فقال في ماهية التاريخ وزعمته في مقالة عنوانها «اللاهة التاريخ» — «ان ميزة التاريخ التي لا ينكرها أحد تنحصر في تدريب العقل ليصل الى درجة يقتدر بها على إدراك المسائل السياسية أدراكاً صحيحاً. ولكن هذه الميزة لا تتناول التنبؤ عن المستقبل. فلا يمكن للتاريخ مطلقاً أن يعدنا بمجموعة من السنن العامة يصح تطبيقها في كل عصر ليسترشد بها السياسيون. ولا يستطيع التاريخ أن يظهر لنا من طريق المقارنة التاريخية من من المتخصصين كان في جانب الحق في أية مسألة من المسائل العامة. ولكن ماهية التاريخ تنحصر في شيء أبعد من ذلك شأنًا وخطاراً وهي تدريب عقلية الانسان على معالجة المسائل العامة وفهدها ومشاركة بقية الامم في شعورها. فان المعلومات التي يعدنا بها التاريخ لا قيمة لها في ذاتها ما لم تخلق فينا حالة فكرية جديدة. فان قائمة «تاريخ» Lecky في ايرلاندا لا ينحصر في أنه دور في كتاب واحد تفاديل المذاهب العديدة وحوادث القتل والتفطير بل أنه أحدث فينا حسنة بالمعطف والشور بالتحجبل وساعد على ادراك الحقيقة التي تقضي بان ذوب الآباء تمدي الى الابناء والى الاجيال التي تشب على الكراهية (اشارة الى الحكمة المروفة في التوراة). فهو لم يبرهن على منح الحكم الذاتي لايرلاندا من حيث هو خطأ أم هو اب بل درب عقول انصار الاعتماد مع انجلترا وانصار الحكم الذاتي لايرلاندا على ادراك المسألة الايرلندية وغيرها من المسائل ادراكاً تاماً» ثم أردف المؤرخ هذا بمسألة اخرى اثبت بها ان التاريخ لا يمكن ان يستنتج قوانين عامة من الامسياب والمسبيات كالمزم الطيبعية مثلاً. قال: «وما زالت المحاولات التي ترمي الى استنتاج الاسباب والنتائج التي تنطبق على حياة الانسان وحالاته السياسية والتي تتكرر بتكرار حدوث هذه الاسباب عديدة الجدوى. فاذا استطعنا مثلاً اقامة البرهان العلمي الكاثبت على قانون الجاذبية نعدر علينا ذلك في البحث التاريخي كما لو أردنا مثلاً أن نشبت أن الهجمات تنتج الثورات دائماً. وهو ما لا يمكن اقامة برهان على صحته. بل إن عكس ذلك صحيح في جملة حوادث يستنتج منها أن الهجمات تنتج خضوعاً واستسلاماً، ومثله من هنا لا يمكن الفصل بين أية حادثة من حوادث التاريخ وبين ما يحيط بها من الظروف اذا ما أردنا ان نستوضح قانوناً عاماً يمكن تطبيقه على كل ظرف. لان الحادثة التاريخية ليست سوى

جموعة من الظروف لا يمكن أن تحدث بظروفها مرة أخرى». ثم قال انكابت  
منها كما - « وليس لأحد هذه القدرة الا السياسيين الذين يزخرفون خطبهم  
بالحجج والدلائل التاريخية.»

من هنا نعتقد أن التاريخ فن من فنون الأدب لا يصبح علماً ثابتاً إلا بعد أن  
يكشف المؤرخون الذين ينتهجون النهج العلمي في التاريخ عن الاسباب التي سادت  
بالإنسان من تجانسه الفطري الى تنافره الاجتماعي وعن التبع والقواعد التي تحدد  
علاقة الفرد بالمجموع الذي يتبعه وعلاقة ذلك المجموع بالكل الاجتماعي وينصحواعن  
حقائق التطور الاجتماعي وروابطه والانعكالات وبواعثها وانشاعها وتشعب متاجيها  
حتى تصبح قواعدهم التاريخية كقواعد علوم الحيوان والنبات والتكوين العضوي  
مبنية على سنن ثابتة لا تتغير ولا تتبدل برقين اسماعيل مظهر

## مناجاة الارواح

واقترح السينفك اميركان

كثرت المناقشات في مناجاة الارواح وكان لبقالات المستر بلاك ( التي نظمنا  
احداها في مقتطف نوفمبر ١٩٢٣) رنة في اندية الباحث النسية وقام كثيرون من  
مؤيدي المناجاة ينتقدونه ويرمونهم بالتسرع وعدم التدقيق في اقتباس الاقوال التي  
انتقدتها. وناطال الاخذ والرد وعزّ الحصول على القول اتصل في هذا الموضوع  
وذلك لان الباحثين فيه فريقان فريق يؤيده وفريق ينفيه طلبت ادارة السينفك  
اميركان تعيين لجنة من العلماء المدروفين بعدم تحيزهم لاحد الجانبين والشهورين بما  
عرف عنهم من التدقيق في البحث عن الحقائق ليروا باعينهم الاعمال التي يعملها  
الوسطاء الذين يدعون مناجاة الارواح او اظهار الاكثير بلازم. وعينت لتلك  
لجنة آلاف ريل اميركي يعطى نصفها لاول وسيط يظهر امام هذه اللجنة  
روحاً تصور صورة فوتوغرافية صحيحة يقنع بها اعضاء اللجنة انها صورت في  
احوال لم يكن للفس ولا لتخداع من يد فيها. ويعطى النصف الآخر لنوسيط  
الذي يعمل عملاً نفسياً يقنع اعضاء اللجنة بصحته. ويستثنى من هذه الاعمال كل  
ما ينسب الى التلبيخ والى قرع المواثد. ولا يمس هذا الاقتراح ما يتعلق بالامور الدينية  
ولا الفلسفية وانما اتصدمت اثبات الاعمال المنسوبة الى مناجاة الارواح او نفيها